محاضرة 02:

تاريخ القرآن: نزول القرآن، بدايات الوحي، التنجيم

1ـ نزول القرآن الكريم:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآنُ هدًى للناسِ و بيّناتٍ من الهدى و الفُرقان﴾ البقرة: 185.

ويقول: ﴿ إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾ القدر: 01.

ويقول: ﴿ إنّا أنزلناه في ليلة مباركةٍ﴾ الدخان: 03.

وجاءت مادة " نزل" في اللغة بتصريفات كثيرة: نزل، وأنزل، وتنزّل، ونزّل وغير ذلك، و النزول في الأصل: انحطاط من علو إلى أسفل، فيقال نزل فلان من الجبل، ونزل عن الدابة، ويطلق على الحلول فيقال: نزل فلان في المدينة أي حلَّ بها، و الإنزال: الإحلال. و المنزل: موضع النزول، و المنزلة مثله، وهي أيضا المكانة. و الليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، وقد نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه و سلّم في ثلاث وعشرين سنة، و للعلماء في هذا مذهبان أساسيان:

1ـ المذهب الأول: وهو الذي قال به ابن عباس و عليه جمهور العلماء ـ أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث السابقة نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيما لشأنه عند الملائكة، ثم نزل بعد ذلك منجّما على رسولنا محمد صلى الله عليه و سلّم في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع و الأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه، حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، و بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات.

2ـ المذهب الثاني: وهو الذي روي عن الشعبي أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلّم. فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر في شهر

رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرّجا مع الوقائع و الأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجّما على رسول الله صلى الله عليه و سلّم.

3ـ وهناك مذهب ثالث : يرى أن القرآن أُنزِل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر في كل ليلة منها ما يقدّر الله إنزاله في كلّ السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك منجّما على رسول الله صلى الله عليه و سلّم في جميع السنة. وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسّرين، ولا دليل عليه و الرّاجح أن القرآن له تنزّلان:

- الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا.
- و الثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرّقا في ثلاث وعشرين سنة.

ومن هنا فرّق العلماء بين لفظتي الإنزال و التنزيل. فقد قال الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ نَزَّل عليكَ الكتابَ بالحقّ مصدّقا لما بين يديهِ و أَنزلَ التّوراةَ و الإنجيل﴾: فإن قلتَ: لمَ قيلَ: نزّل الكتاب و أنزل النوراة و الإنجيل؟ قُلتُ: لأنّ القرآن نزل منجّما ونزل الكتابان جملة. وقال الجرجاني في كتابه التعريفات مفرّقا بين اللفظتين: " الفرق بين الإنزال و التنزيل: الإنزال يستعمل في الدفعة، و التنزيل يستعمل في التدريج".

2ـ معنى الوحي و صوره:

أصل الوحي لغة: الإشارة السريعة، وقيل: إنه الأعلام الخفي الريع الخاص بمن يوحى أو يوجّه إليه بحيث يخفى على غيره، ولهذا يمكن تعريف الوحي شرعاً بأنه عرفان يجده المرء في نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى، بواسطة أو بغير واسطة.

وقد حدّدت الآية القرآنية التالية ثلاث صور لتكليم الله تعالى عباده، أو لهذا الإعلام الإلهي، قال تعالى: ﴿ وما كان لبشرٍ أن يُكَلّمَهُ اللهُ إلاّ وحياً أو من وراءِ حجابٍ أو يُرسلَ رسولاً فيوحِيَ بإذنهِ ما يَشاءُ إنّه عليٌ حكيمٌ﴾ الشورى: 51. وهذه الصور هي:

1ـ إلقاء المعنى في قلب النبي، أو إلقاء الله تعالى ما يريد إعلامه مباشرة في قلب النبي الكريم، من غير توسّط ملك الوحي.

2ـ كلام من وراء حجاب، أي أن يكلّمه الله تعالى بكلام يسمعه و لا يرى المتكلم سبحانه، لأن الذي يسمع محجوب عن الرؤية، فالحجاب إذن راجع لمن يكلّمه الله أو لمكان الكلام، وقد كلّم الله تعالى موسى عليه السلام من وراء الشجرة (الحجاب).

3ـ تكليم النبي بواسطة ملك الوحي، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ غير أن جبريل كان ينزل على النبي " ص" بأسلوبين أو شكلين:

الأول: أن يأتيه ملك الوحي في مثل صلصلة الجرس.

والثاني: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلّمه فيعي عنه ما يقول. وقد تم الوحي بالقرآن الكريم، بلفظه ومعناه جميعا، على الأسلوب الأول أو الكيفية الأولى.

3ـ حكمة نزول القرآن منجّماً:

نزل القرآن منجّما (مفرّقا)في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرّقاً في قوله تعالى: ﴿ وقُرآنًا فرقْناهُ لتَقرَأَهُ على الناسِ على مُكثٍ و نزّلناهُ تنزيلاً ﴾ الإسراء: 106. أي جعلنا نزوله مفرّقا كي تقرأه على الناس على مهل وتثبّت، ونزّلناه تنزيلا بحسب الوقائع و الأحداث، ونستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجّما من النصوص الواردة في ذلك، ونجملها فيما يأتي:

1ـ تثبيت فؤاد رسول الله " ص" فقد كان الوحي يتنزّل على الرسول " ص" فترة بعد فترة، بما يثبّت قلبه على الحق، ويشحذَ عزمه للمضي قدما في طريق دعوته.

2ـ التّحدّي و الإعجاز: فالمشركون تمادوا في غيّهم، وبالغوا في عتوّهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدٍّ يمتحنون بها رسول الله " ص" في نبوّته، فيتنزّل القرآن بما يبيّن وجه الحقّ لهم.

3ـ تيسير حفظه وفهمه فقد نزل القرآن الكريم على أمّة أمّية لا تعرف القراءة و الكتابة، سِجلُّها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة و التدوين.

4ـ مسايرة الحوادث و التدرج في التشريع، فقد كان القرآن بادئ ذي بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله و اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء و جنة ونار، ويقيم على ذلك الحجج، و البراهين، وكان يأمر بمحاسن الأخلاق و ينهى عن الفحشاء و المنكر، ويبيّن قواعد الحلال و الحرام التي يقوم عليها صرح الدين، ثم تدرّج التشريع بالأمة في علاج ما تأصل في النفوس من أمراض اجتماعية، كما كان القرآن يتنزّل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله.